الطفل وحقيقة الانسان

للأستاذ ابرهيم عبد القادر المازني

زارتني ، ذات يوم ، سيدة ، ومعها طفلة تناهز الرابعة ، فسقيت السيدة القهوة المرة التي تحبها ، وحرت في الطفلة : ماذا أسقيها أو أطعمها ، أو بماذا ألاعبها ، وليس في مكتبي ما يصلح لها ؟ ثم خطر لي أن أبعث بالخادم ليشتري لها « شكولاتة » . فقالت السيدة : « إنك تدللها وتفسدها » . قلت : « دعيها تتدلل وتفسد — على قولك — فلن ترى أرغد من أيامها هذه » . قالت : « وستحبك بالشكولاتة ! » ، وضحكت . قلت : « هل تعلمين أن كل حب لإنسان آخر هو من حب النفس ؟ » . ولم أطل في هذا المعنى فإني أعرفها تكره الفلسفة وإن كانت ذكية لبيبة . وجاءت الشكولاتة فأخذتها الطفلة من الخادم وابتسمت له مسرورة . فقالت لها السيدة — وأشارت إليّ — : « إنه أولى بابتسامك ، فقومي إليه واشكريه بقبلة » . فانحدرت عن مقعدها خفيفة ضاحكة ولثمت خدي . وعادت إلى الشكولاتة ، وهمت أن تنزع عن بعضها الورق وتأكل ؛ فنهتها السيدة عن ذلك وقالت لي إنها ستدخل طعاماً على طعام ، وليس هذا بمحمود أو مأمون . ولفت لها الشكولاتة في ورقة وناولتها إياها وربتت لها كتفها وقالت : « أبقيها معك إلى ما بعد » . فأطاعت الطفلة ووضعت اللفافة في حجرها ، وجعلت تقلبها وتعبث بها ، وذهبنا نحن نتكلم ، وإذا بالسيدة تغمزني بعينها مشيرة إلى طفلتها ، فنظرت فألفيتها قد فكت الورقة وأقبلت على قطع الشكولاتة تحركها بأصبعها ، فهززت رأسي مستفسراً . فقالت السيدة : « إنها تعدها » . قلت : « لعله يفرحها أن تعرف عددها » . قالت : « لا » وهزت رأسها : « ما أظن بها إلا أنها تعدها للمرة الثانية » . قلت : « ماذا تعنين ؟ » . قالت : « أعني أن أكبر الظن أنها عدتها حين أخذتها . ثم أخذتها أنا منها ولففتها في هذه الورقة ، فهي تعدها مرة ثانية لترى أنقصت أم بقيت كما كانت » . قلت : « اتقي الله ! » . قالت : « لك رأيك ، ولكنها بنتي فليس تخفى عليّ من أمورها خافية » .

وصارت الطفلة تعرفني بعد ذلك « بابا شكولاته » وهي خليقة أن تعرف اسمي ، وأن تستطيع النطق به ، مما هو بأثقل أو أصعب من لفظ الشكولاتة ، ولكن الشكولاتة حلواؤها الأثيرة ، وأنا أتحفها بها كلما لقيتها ، فهي تهمل اسمي وتطلق عليّ ما تحب ، ولو أهملت أن أقدم لها الشكولاتة ، أو قصرت في هذا الواجب ، لزهدت في لقائي وانصرفت عن ذكري ، وتركت حث أمها على زيارتي .

وليست هذه الطفلة بالشاذة ، فإن كل طفل على غرارها ، حتى ولدي أراها أحنى بأمهما منهما بي ، لأنها لا تنسى أن تزودها بما يحبان ، وإن كنت أنا التعب المكدود والذي لا يزال يسعى ويشقى ليسعدا .

وأحسب أن الإنسان يبدو على حقيقته في طفولته ، أي قبل أن يصبح إنساناً مصقولاً منجوراً أو مهذباً كما نقول ، والطفل أثرة مجسدة ، يحب ويكره ، ويقبل ويدبر ، تبعاً لما يلقى منك . وقد يكون أبوه أحنى عليه ، وأعمق حباً له ، وأعظم شغلاناً به ، ولكنه لا يلاعبه ، ولا يعنى بأن يحشو له جيوبه باللطائف المشتهاة ، ولا يجيئه كل بضعة أيام بلعبة ، فلا يعبأ به الطفل أو يجعل إليه باله ، على حين تراه يتعلق بأهدلب صاحب لأبيه لأنه لا ينسى حين يجيء في زيارة ، أن يحمل لهذا الطفل ما يسره ، أو لأنه يشغل نفسه معه ببعض دقائق بالهذر الفارغ .

وكان صديق لي يقول : « إياك سيء الظن بالإنسان » فكنت أبتسم ولا أجيب ، وأنتقل به إلى موضوع آخر استثقالاً لهذا البحث الذي لا يطيب للنفس في كل وقت ، حتى لفتتني تلك السيدة الذكية إلى المظهر الحقيقي للانسان ، فدرسته في أبنائي ، وانتهيت إلى أن كل ما في الإنسان من خير وفضيلة اكتساب وليس بطباع فيه ؛ والطفل — قبل أن نعلمه خلاف ذلك — لا يعرف إلا نفسه ، ولا فرق بينه وبين الوحش في الفلاة أو الغابة . وعجيب أن ينسى الإنسان أنه حيوان ؟! فهو يضرب أخاه ، ويمزق له ثيابه ، ويريق الحبر على أوراقه أو كتبه ، ويحطم له لعبه ، أو يتلفها ، ويغضب أو يستاء إذا رآه يلبس الجديد قبله أو دونه ، ويعذب العصافير والقطط ، ويذوي الورود والأزهار ، ولا يقف في العبث والإتلاف عند حد ؛ ولا يدركه عطف على أحد ، ولا يشعر برقة لإنسان

أوحيوان . ولسنا نحن الكبار خيراً منه ، وإنا لأحسن ضبطاً لأنفسنا ، وكبحاً لأهوائنا ونزعاتها ، ولكنا نحتاج إلى الضبط والكبح لأن النزعات موجودة تلح بنا وتدفعنا ؛ ولو أمنا العاقبة لأطلقنا أهواء نفوسنا وأملينا لها فيها . ولو جمحت بنا لما نفعتنا اللجم والأعنة التي اعتدنا في حالة الاتزان أن نصدها بها عما تهم به . ونحن في كل حال نراقب ماهو أوفق لنا وأصلح ، والأمر في الأطفال أوضح وأبين ، لأن اللجم الكابحة ليست هناك ، أو لأن التدريب عليها ناقص ، ونمو العقل مع التجربة يساعد على حسن استخدام اللجام ، ورياضة النفس على طاعته

ولست أقول إن الإنسان شرير بطبيعته ، فليست المسألة مسألة خير أو شر ، وإنما هي طباع فيه وفطرة يبنى عليها ، والطباع لا خير ولا شر ، وإنما هي طباع . وقد احتاج الإنسان إلى مقدار من النظام لما احتاج أن يعيش في جماعته ، والجماعة لا تصلح بالانطلاق مع السجية ، وإنما تصلح بإقامة حدود

وعلى أن روح الجماعة ليس فيها لا خير ولا رحمة ولا رفق ولا شيء مما يجرى هذا المجرى ، والشر الذي يذعر الفرد مجرد التفكير في ارتكابه تقدم عليه الجماعة وهي ترقص وتباهي ،

من رسائل الأدباء

طالما صحت قائلاً : إن الدولة لا تنظر إلى الأدب بعين الجد ، بل إنه عندها شيء وهمي لا وجود له ولا حساب . وأقول اليوم إن الأدباء أنفسهم لا يريدون أن يحملوا الدولة على الإيمان بحقيقة الأدب . بل إن الأدباء وقد أنكرتهم الدولة وأنكرت بضاعتهم لم يفعلوا شيئاً ولم يبدوا حراكا . بل إن الأمر قد بلغ من السوء حداً رأى فيه الأدباء نتاج أذهانهم يسقط في التراب كما تسقط ثمار الشجرة الناضجة ، فلا يتحركون ولا يصيحون في الناس : أن أقبلوا واجمعوا هذه الفاكهة وانتفعوا بها واطلبوا المزيد حتى تنشط الشجرة للأثمار ولا يجف ماؤها من الترك والإهمال . من العجب أن يلحظ الأدباء أن ثمار مواهبهم لا تصل إلى أيد كثيرة فلا يجتمعون ليبحثوا هذه المشكلة . ومن العجب أنهم يرون أن زبدة جهودهم تتلقفها أيدى الوسطاء من التجار الذين يتربصون بهم كما تتربص جوارح الطير بصغار العصافير فلا يحاولون المداولة فيما بينهم للخلاص من هذا المصير . إن انعدام روح النظام بين الأدباء وتفرق شملهم وانصرافهم عن النظر فيما يربطهم جميعاً من مصالح وما يعنيهم جميعاً من مسائل قد فوت عليهم النفع المادي والأدبي ، وجعلهم فئة لا خطر لها ولا وزن في نظر الدولة ، ولقمة باردة سائغة في فم التجار والوسطاء . تلك حال الناضجين المعروفين من أدبائنا ، أولئك الذين يتخذهم الناشئون من الأدباء مطمحاً لأنظارهم ، ويرون فيهم حلماً ذهبياً جميلاً ، ويتحرقون عجلة وشوقاً لبلوغ مراتبهم ، ويتوسلون إليهم أن يأخذوا بأيديهم ويقودوهم في هذا الطريق . . .

واجب الأمانة يدعوني أن أصارح الناشئين : إياكم أن تعقدوا الآمال الكبار على الأدب في بلادنا اليوم ، إذا استمر الحال على ما ترون . فما أرض الأدب الآن سوى مستنقع مهمل ، حرام أن تلقى فيه بذور . وحسبكم تلك الزهرات القليلة الوحشية التي نبتت من تلقاء نفسها على حواشيه فلم يأبه لها أحد ولم يعن بتعهدها وريها إنسان !

ترفعه الحكيم

وهذا ما يحدث في الثورات . وقد رأيت بعيني جماعة حانقة في إبان الثورة المصرية تمزق رجلاً بأيديها فوليت هارباً من هذا المنظر . وما أظن أن أقسى فرد يستطيع أن يفعل ذلك وهو وحده . وأحسب أن الذي يرد الجماعة إلى الطبيعة الحيوانية هو أن الطباع الحيوانية المشتركة — وهي واحدة — تتغلب على المزايا المكتسبة التي تزعمها صفات إنسانية — وهي متفاوتة

ومازالت القاعدة الحسابية هي الصحيحة ، أعني أن الذي يقبل الجمع هو المتشابه لا المختلف ؛ ولست تستطيع أن تقول إن عندك أربع تفاحات وأنت تعني أن عندك تفاحتين وبرتقالتين . ومن هنا ذهب ماكس نوردو بحق إلى أن برلماناً من أعاظم الرجال مثل جوته وشكسبير ونابليون الخ لا يكون خيراً من برلمان من الأوساط العاديين ؛ لأن برلماناً كهذا يكون مؤلفاً من مائة صفة مشتركة تتغلب على كل مزية مفردة لكل واحد من هؤلاء العظماء

ولست أذم أو أمدح ، وإنما أصف الواقع ، والواقع أيضاً أن المدنية معناها التنظيم ، أي الكبح والصقل ودفع الحياة في المجاري التي هي أصلح للجماعة وأجلب لخيرها

ابراهيم عبد القادر المازني